الاستشراق الفرنسي ودراستــه للقرآن الكريم
الاتجاه والمنهج

د. سامية خضرة بن هنية
جامعة الجزائر

Abstract:

The Orientalist thought, whether old or new, cognitively field, I care about scientists and thinkers of the West of different schools. Quran out human civilization University of each variants and their differences and coalitions. Has given the European and French Orientalist school, interest in this area.

What is the attitude of the French Orientalism Quran? What are the reasons and motives and goals of the study of the Quran and its translation?

Keywords:

Orientalist- Quran- civilization- French Orientalism- European

يُعَدُّ الفكر الاستشراقي، سواء كان قديما أو حديثا، حقلا معرفيا، اهتمّ به علماء ومفكّري الغرب على اختلاف مدارسهم، فهو إنتاج فكريّ شهده العَالَمُ في حقبات تارخية متّصلة تسير جنبا إلى جنب مع التحوّلات والمتغيّرَات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي سادت العصور، والتي عاش فيها أولئك المستشرقون، فلا يمكن فَصْل ما شهدته من ظروف سياسية واجتماعية وغيرها، وبين ما أنتجه المستشرقون من دراسات.

وعليه، فهو بُنْيَةٌ معرفيَّة ارتبط منذ نشأته بالمصلحة والسلطة، كما ارتبط هذا الفكر بدراسة الشرق عامة ودراسة الإسلام خاصة.هذا الأخير الذي زخرت به الحضارة الإسلامية مما أفرز اهتمام الغرب بهذه المنظومة المتناسقة، انطلاقا من دراسة مصادره بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وكل ما يتعلق بالتراث الإسلامي، وما يشمله من علوم وأدبٍ وثقافة وعقيدة وفكر؛ وكان في مقدمة هذا الاهتمام العناية بدراسة القرآن الكريم ومحاولة ترجمة معانيه باعتباره حَقْلًا معرفيا ثَرِيّ يتمتّع

بمميزات ومضامين وخصوصيات، فهو النصّ المركزي الأكبر في الثقافة العربية الإسلامية، إذ يصل إلى أعماق الحقائق القصوى الثابتة في كلّ من النفس الإنسانية والمجتمع الإنساني ليرسم الخطوط الفاعلة في علاقة البشر بالواقع ويعيّن خطوطها.

فالقرآن الكريم أصل لحضارة إنسانية جامعة لكلّ تنويعاتها واختلافاتها وائتلافاتها، وهو الكتاب الوحيد الذي مَنَّ اللهُ بِهِ على البشرية وأودعه تلك الطاقات الهائلة على الاستيعاب والتجاوز والقدرات التي لا تحصى ولا تَنْقَضِي على تصحيح مسارات البشرية.

انطلاقا من ذلك أَوْلَت المدارس الاستشراقية الأوروبية عامة، والفرنسية خاصّة، الاهتمام بهذا المجال، لأسباب ودوافع وأهداف متعددة ادّت إلى تعدد المنهج في دراسة وترجمة القرآن الكريم.

لذلك تطرح الإشكالية الآتية المتمثلة في أسئلة فرعية هي:

1 . ما موقف الاستشراق الفرنسي من القرآن الكريم؟.

2 . ما هي الأسباب والدوافع والأهداف من دراسة القرآن الكريم وترجمته؟.

3 . ما هو المنهج المتّبع في الاستشراق الفرنسي دراسة القرآن الكريم؟.

للإجابة على الإشكاليات الآتية، لابدّ من تحديد خطة علمية منهجية في تقسيم البحث إلى العناصر الآتية:

. المبحث الأول: مفهوم الاستشراق.

. المطلب الأول: الاستشراق في اللغة.

. المطلب الثاني: مفهوم الاستشراق اصطلاحا.

المبحث الثاني: مدارس الاستشراق الأهداف والدوافع.

. المطلب الأول: مدارس الاستشراق.

. المطلب الثاني: أهداف ودوافع الاستشراق.

المبحث الثالث: المدرسة الاستشراقية الفرنسية ودراستها للقرآن.

المبحث الأول: اتجاهات المستشرقين الفرنسيين في دراسة القرآن.

المبحث الثاني: منهج الاستشراق الفرنسي في دراسة القرآن.

الخاتمة: نتائج وتوصيات.

المبحث الأول

مفهوم الاستشراق

اختلف الباحثون والمفكرون في تحديد مفهوم الاستشراق وفي أَنْسَاقِهِ ومناهجه منذ قرون عديدة، سواء عند الغرب أو عند المسلمين، باعتباره حقل معرفيّ ضخم نشأ في الغرب لدراسة الثقافات الشرقية، وتمثّلها في الفنون المختلفة؛ فعرّف بتعريفات اصطلاحية كثيرة من طرف الباحثين العرب والمسلمين والمستشرقين؛ وقبل ذكر بعض هذه التعريفات لابدّ من تحديد المفهوم اللغويّ لهذا المصطلح.

المطلب الأول: الاستشراق في اللغة.

(**الاستشراق**): تعريبٌ لكلمة الإنجليزية (Orientalism)، مأخوذ من الاتجاه إلى الشرق، وهي على وزن استفعال، مشتقّة من مادة (شرق)، يقال: شرقت الشمس، شرقا، وشروقا: إذا طلعت (1).

والجدير بالذكر أنّ الكلمة التي نبحث عن مفهومها اللغويّ لمْ تَرِدْ في المعاجم العربية المختلفة (2)؛ غير أنّ هذا لا يمنع الباحث من الوصول إلى معناها الحقيقيّ، استنادا إلى قواعد الصرف وعلم الاشتقاق، حيث يبدو أنّ معنى الاستشراق أدخل نفسه في أهل الشرق وصار منهم (3)؛ فيفهم مما سبق أنّ (**الاستشراق**): كلمة مشتقة من (**الشَّرْقِ**) الذي أصبح يعني خاصّة: الشرق العربي الإسلامي.

المطلب الثاني: مفهوم الاستشراق اصطلاحا

تعددت مفاهيم الاستشراق اصطلاحا عند المفكرين الغربيين، وعند المفكرين الإسلاميين، إذ لمْ يتّفقوا على مفهوم مُحَدَّد يمكننا اعتماده، مدلولا للفظة (**الاستشراق**)، فكثرت التعاريف، نذكر منها ما يأتي:

1 . يعرّف (**الاستشراق**) بأنّه: « عِلْمُ العَالَمِ الشَّرْقِيّ »؛ وها التعريف يحمل مَعْنَيَيْنِ:

أ) . معنى خاصّ، وهو: « الدراسة الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وتاريخه وعقائده » (4).

ب) . معنى عامّ، حيث يطلق الاستشراق على كلّ غربيّ يشتغل دراسة الشرق كلّه وآدابه وحضاراته وأديانه.

2 . ويعرّف محمد عبد الغنيّ (**الاستشراق**) بقوله: « هو اشتغال غير الشرقيين بدراسة لغات الشرق وحضارته وفلسفاته وأديانه ورُوحَانِيَّاتِهِ، وأثر ذلك في تطوُّرِ البناء الحضاريّ للعالم كلّه » (5).

3 . أمّا المفكّر الجزائريّ مالك بن نَبِي، فإنّه يُحدِّد مصطلح (**الاستشراق**) فيقول: « إنّنا نَعْنِي بالمستشرقين الكُتَّاب الغَرْبِيّينَ الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية، وأنّ صفة (مستشرق) ينبغي أن تقتصر على من ليس شرقيا، لأنها تصف حالة طلب لشيء غير متوفّر في البيئة التي نشأ فيها الطالب » (6).

4 . بينما يعرّف الدكتور حسن حنفي (**الاستشراق**) بقوله: « هو مجموعة من الدراسات التي قام بها الباحثون الأوروبيون في أوج النهضة الأوروبية إبّان المدّ الأوروبّي عندما أرادت جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الشعوب في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، أي: في المستعمرات خارج أوروبا » (7)؛ وهذا التعريف حصره صاحبه في فترة النهضة الأوروبية، وحصر هدفه في أغراض استعمارية، وحصر (**الاستشراق**) في المدرسة الأوروبية دون الأمريكية، والواقع يثبت عكس ذلك.

5 . ومن المعاصرين العرب الذين تناولوا موضوع (**الاستشراق**) وتحديد مفهومه إِدْوَارَدْ سَعِيد، الذي عرّفه بقوله: « إِنَّهُ المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق بإصدار تقريرات حوله، وبوصفه وتدريسه والاستقرار فيه وحكمته » (8)؛ ويصفه في موضع آخر بأنّه « قراءة الشرق بنطق سلطوي ويؤسّس للتمييز بين نمط المعرفة الغربية التي توصف دائما بالعقلانية، وبين الثقافة الشرقية التي بدت في كلّ التقريرات الاستشراقية عنوانا لنمط التفكير الأسطوري، ونموذجا لعقل لا يتملك الربط بين البرهان وبين المقدمات والنتائج » (9).

6 . ويُذْكَرُ مفهوم آخر أكثر عمومية « هو اعتباره أسلوبا للتفكير على التمييز الأنطولوجي والإبْستِمُولُوجِي بين الشرق والغرب، إذ يهدف هذا المفهوم إخضاع الشرق للغرب، وأداة ووسيلة للتعبير عن التناقض بين الشرق والغرب » (10).

كلّ هذه المفاهيم تتعلّق بالمفكرين العرب والمسلمين الذين أرادوا تحديد مفهوم (**الاستشراق**) و(**المستشرقين**) على أنّه نشاط فكريّ يهدف لدراسة المشرق الاسلامي، ليشمل العلوم والآداب والثقافة والعقيدة والفكر، فهو أسلوب التميّز المعرفيّ والفكري والعرقي والإيديولوجي بين الشرق والغرب، سواء كان لهذا النشاط الفكري بُعْدٌ أكاديمي يَنْبَنِي على أصل علمية، أو بُعْدٌ عرقيّ يَرْتَكِزْ على التمييز الثقافي والعقلي والتاريخي والعرفي بين المشرق والغرب، أوْ بُعْدًا استعماريا يهدف إلى السيطرة على الشرق وإعادة تنظيمه وتوجيهه والتحكّم فيه.

أمّا مفهوم (**الاستشراق**) لدى علماء الغرب، فنجد تعريفات ومفاهيم كثيرة، منها:

1 . ما يَرَاهُ (رودي بارت Rodi part) أنّ (**الاستشراق**): هو عِلْمٌ يختصّ بفقه اللغة خاصّة، ولابدّ لَنَا إِذَنْ أن نُفكِّرَ في المعنى الذي أطلق عليه كلمة (**استشراق**) المشتقّة من كلمة (**شرق**) التي تعني: مشرق الشمس؛ وعلى هذا يكون (**الاستشراق**): هو علم الشروق أو علم العالم الشرقيّ (11).

2 . ويعتمد المستشرق الإنجليزي (آربري) تعريف (قاموس أكسفورد) الجديد الذي يعرّف (**المُسْتَشْرِق**) بأنّه: «من تبحَّرَ في لغات الشرق وآدابه » (12).

3 . ويعرّف (جويدي) (علم الاستشراق) بقوله: « والوسيلة لدرس كيفية النفوذ المتبادل بين الشرق والغرب إنما هو علمُ الشرقِ ».بل نستطيع أن نقول: « إنّ غرض هذا العلم الأساسي ليس مقصورا على مجرّد درس اللغات واللهجات أو تقلّبات تاريخ بعض الشعوب ، كلَّا ...، بل من الممكن أيضا أن نقول: إنّه بناء على الارتباط المتين بين التمدّن الغربي والتمدّن الشرقي ليس علم الشرق إلَّا بَابًا من أبواب تاريخي الروح الإنساني... » (13).

4 . أمّا (دِيتْرِيشْ)، فيعرّف (**المُسْتَشْرِق**)، وليس (الاستشراق)، بأنّه: « هو ذلك الباحث الذي يحاول دراسة الشرق وتفهّمه، ولن يتأتّى له الوصول إلى نتائج سليمة في هذا المضمار ما لمْ يتقن لغات الشرق » (14).

وخلاصة القول أننا نقول: إنّ الاستشراق له دلالات واسعة ومفاهيم كثيرة، كلّها تتَّفِق على أنّه عِلْمٌ يختصّ بفقه اللغة ومتعلّقاته وعلم الشرق بكلّ جوانبه التاريخية والحضارية والاجتماعية... الخ.

إلَّا أنّه لا يوجد اتّفاق تامّ حول معنى (**الاستشراق**) وحدوده ومضموناته؛ وعليه يمكننا القول بأنّ (**الاستشراق**) بمعناه العامّ يشير إلى الدراسات والأبحاث والأعمال الكتابية الأخرى التي قام بها المفكّرون الغربيون عن الشرق للك عرّفه إدوارد سعيد بأنّه علم الشرق في الغرب.

و يظهر بهذا أنّ (**الاستشراق**) فَرْعٌ من فروع المعرفة في الثقافة الغربية؛ وهو مصطلح مطَّاطِيّ، لمْ يتوقّف عند تعريف واحد جامع مانع، إذ لمْ يحدد المفهوم والتعريف النهائيّ له بسبب (**المُسْتَشْرِق**) نفسه الذي سعى أن يكون المصطلح مطَّاطِيًا، فتارة يسمى (**اسْتِشْرَاقًا**)، وتارة يسمى (**اسْتِعْرَابًا**)، وتارة يسمى ب(الدراسات للعلوم الإنسانية)... الخ.

المبحث الثاني

مدارس الاستشراق الأهداف والدوافع

المطلب الأول: مدارس الاستشراق.

ينقسم (**الاستشراق**) من حيث التحديد الزمني، ومن حيث الرقعة الجغرافية، إلى قسمين:

1 . (استشراق قديم): يتمثّل في القارة الأوروبية مع تفاوت بلدانها، ويسمى هذا القسم بـ(المدرسة الاستشراقية الأوروبية)، التي كان لها احتكاك بالعرب والمسلمين منذ الفتوحات الإسلامية التي وصلت إلى (إسبانيا) وجنوب (فرنسا) و(روسيا)، مما أدّى بهذه الدول إلى الاهتمام بالحضارة الإسلامية، فأنشأت مدارس ومعاهد لتعليم اللغة العربية، وجلبت الكثير من المخطوطات والكتب من كلّ أنحاء العالم الإسلامي، وكانت الغاية من ذلك التعرّف على لغة وتاريخ حضارة العالم الإسلامي، بِنِيَّةِ الاستفادة من جهة، وبِنِيَّةِ يلب العقلية العربية الإسلامية من كلِّ خصائص الأصالة والابتكار، انطلاقا من فكرة فوقية الجنس الآري على ما عداه من أجناس أخرى، والإلحاح على فكرة المركزية الأوروبية بالنسبة للعالم فكرا وثقافة وحضارة ومدنية.

2 . (استشراق حديث): تصنّف (أمريكا) ضمن دول العالم الجديد، لذلك فـ(**الاستشراق الأمريكي**) ليس استشراقا قديما، كما في أوروبا، بل هو استشراق معاصر حديث، استفاد من القديم، إذ نشأ في أوائل القرن التاسع عشر، وشهد نهضة شاملة بعد منتصف القرن العشرين، فقد ظهرت الدراسات العربية الإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية، لتأخذ مفهوما جديدان وشكلا أكثر دقّة وتخصُّصًا، لأنّ هدف أمريكا هو الانفراد بقيادة العَالَم، ولا يمكنها ذلك إلَّا بمعرفة ثقافة شعوبه وقِيَمِهِ، فأنشأت لذلك مراكز بحوث كثيرة ومؤسسات عملية مختلفة، ومعاهد عليا للدراسات الشرقية، ليصبح (**الاستشراق الأمريكي**) علما نشيطا وغزيرا بعد الاستفادة من (**الاستشراق القديم**) والاستعانة بالمستشرقين التقليديين.

وبذلك يُعَدُّ هذا الاستشراق امتدادًا واستمرارًا لِلاسْتِشْرَاقِ الأوروبّي، وَارِثًا مجمل تصوراته المسبقة عن العالم العربي والإسلاميّ، متّخذا منهجية خاصّة به في دراسة الشرق حتى لا يعدّ استشراقا تقليديا.وتفرَّدَ هذا النوع عن غيره من المدارس الأوروبية بالتركيز على العلوم الاجتماعية والدراسات الإقليمية، وجعل المنطقة خاضعة للدراسة من قبل جميع التخصصات الأكاديمية.

فلمْ يَعُدْ الاستشراق ذاك الفرع المعرفي المقتصر على بعض المتخصصين في لغات تلك البلاد، وإنما تحوّل إلى استشراق انْتَرْبُولُوجِي واجتماعي ينصبّ اهتمامه على الإنسان نفسه وسلوكياته وعاداته.

المطلب الثاني: أهداف ودوافع الاستشراق.

مَثَّلَ (**الاستشراق**) تيَّارًا فكريا في الدراسات المختلفة عن بلاد الشرق وفي البحث عن علومه وعقائده وآدابه، وشملت كتاباته حضارته وأديانه ولغاته وثقافته، وأسْهَمَ تياره في صياغة التصورات الغربية عن العالم العربي والإسلامي، وعبَّرَ عن خلفية الصراع الحضاري القديم والحديث بين الغرب والشرق؛ لذلك خضعت الدراسات الاستشراقية لغايات وأهداف ودوافع سياسية أو استعمارية أو دِينِيَّة أو علمية.وأغلب الأهداف كانت سياسية، استعمارية، تنصيرية، ومن الطبيعي هنا أن يصرّح (هرمن استنجلر)، وهو أحد أعلام الاستشراق الألماني بقوله: « إنَّنا يجب أن نكسب وجهات نظر جديدة لعقائدنا المسيحية، بناء على فهمنا العميق للتعاليم الإسلامية، وفهمنا لنفسية المسلم المتديّن، وذلك حتّى نتجنّب نقاط الضعف فيما نستخدمه من أدلّة، وحتَّى نَتَبَنَّى من جديد، دفاعا جديدا عن العقيدة المسيحية والدفاع عنها والتمكين لها بين المسلمين بأسلوب يبدو في ظاهره علميا ».

وتقتضي الضرورة المنهجية تصنيفا عادلا وموضوعيا بوجود استشراق علميّ، على الرغم من مساحته الضيّقة مقارنة بالأوّل، فمثلا أسهمت الدكتورة (زِغْرِيدْ هُونْكَه) في هذا المضمار وأنصفت العرب والمسلمين في عدد من كتبها، أهمّها: (شمس العرب تشرق على الغرب)، وفي كتابها الذي أصدرته عام (1990م): (اللهُ بَرِيءٌ مما يصنعون)؛ لقد كشفت ألف تحامل وتحامل ضدّ العرب في الغرب حين كشفت قائمة طويلة من التعاملات والتحريفات التاريخية، كما كشفت عن الصدمة النفسية للغرب من الإسلام (15).

ويؤكّد ذلك المفكر (لِيُوبُولْدْ قَايْسْ) الذي أسلم وسمَّى نفسه: (محمد أسد) بقوله: « إنّ أبز المستشرقين الأوروبيين جعلوا أنفسهم فريسة للتحزّب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام، ولذلك يظهر الإسلام في تلك الكتابات ليس على أنّه موضوع بحث علميّ، بل على أنّه متّهم يقف أمام قضاته يلتمسون الأدلّة الباطلة لِإِدَانَتِهِ » (16).وعليه نرى أنّ الهدف الرئيسي والمركزي للاستشراق هو الدافع الديني الذي يسعى إلى:

أ . مَنْع الانسان الغربي من أن يرى نور الإسلام، وذلك عن طريق تلفيق صورة مشوّهة سوداء عنه، تجعل الغربي خائفا منه وكارها له؛ وفي المقابل تحويل المسلمين أيضا عن دينهم وتقطيع أوصال جماعتهم الإنسانية الكبرى وبثّها لوحدات متقاطعة متناثرة.

ب . معرفة الشرق ودراسة أرضه وعلمه وحضارته والاستفادة منه؛ وفي المقابل التشكيك في الدين الإسلامي وكلّ ما أنتجه المسلمون من تراث وحضارة.

ج . ويضاف إلى ما سبق أهداف فرعية عديدة، منها: الهدف الاستعماري والاقتصادي والفكري... الخ.ومجمل القول حول ما سبق بيانه، أنّ أهداف ودوافع الاستشراق انطلقت من عقدة الآخر، حيث سعى هذا الفكر في تحجيم (الأَنَا) وهيمنة الآخر بنظرة استعلائية غربية تنطلق من أنّ المجتمعات الغربية ما ساد فيها من فلسفات بين الشرق والغرب.

وكان من الطبيعي أن يركّز الفكر الاستشراقي نشاطه على قراءة القرآن الكريم ودراسته وترجمته، باعتباره المصدر الأساسي لبناء الحضارة الإسلامية، فتضاءلت اهتمامات المستشرقين على اختلاف مدارسهم ومِلَلِهِمْ وألسنتهم ودُوَلِهِمْ، قديما وحديثا، في معرفة ودراسة تاريخ القرآن وعلومه، والسعي والإسهام في ترجمته؛ فمنهم من تحامل وشكَّكَ في أنّ القرآن ليس وَحْيًا ومصدرا إِلَهِيًّا؛ وهناك من درسه بكلّ موضوعية، بل هناك من انتقد افتراءات ومواقف غيره من المستشرقين حول الإسلام عامة، والقرآن خاصة.وهنا نطرح السؤال الآتي: أين موقع المدرسة الاستشراقية الفرنسية من هذا الفكر؟، وما هو الاتجاه والمنهج المعتمد في دراسة القرآن داخل هذه المدرسة؟؛ هذا ما سنعرفه فيما يأتي من الكلام.

المبحث الثالث

المدرسة الاستشراقية الفرنسية ودراستها للقرآن الكريم

تُعَدُّ المدرسة الاستشراقية الفرنسية من المدارس الكبرى التي كان لها الشأن والأثر الأكبر على الفكر الاستشراقي العامّ قديما وحديثا، إذ كان لها السبق في الخوض في هذا المجال، فتميّزت بإنشاء أوّل كرسي للغة العربية في بداية القرن الرابع الميلادي وفي مدارسها وجامعتها.كما أنشئ في هذا العصر كرسي للدراسات الإسلامية في جامعة باريس تتمّة للقسم العربي في (السوربون) الذي يهتمّ بحضارة العرب والفقه الإسلامي وتراثه.ونتيجة لذلك اعتبرت (باريس) قبلة لجميع المستشرقين الأوروبيين، مما أثّر على مجمل المدارس الأخرى في الطريقة والأسلوب والمنهج والأهداف، حيث تَبَنَّى اتِّجَاهَهَا الكثير من المستشرقين الذين أصبحوا فيما بَعْدُ المِرْآة العاكسة التي مثّلت المسار العامّ للاستشراق الأوروبي عموما، والفرنسي على وجه الخصوص، لِمَا مثّله من عُمْقٍ في تناول أغلب نواحي الدراسات الشرقية منذ انطلاق أوّل مدرسة للغات الشرقية في (باريس).

واستنادًا لِمَا سَبَقَ ذكره من إسهامات الاستشراق الفرنسي، اعتبرت المدرسة الاستشراقية الفرنسية رائدة المدارس الأوروبية، فهي من المدارس الرئيسية ذات التأثير الفاعل على الدراسات

والبحوث الاستشراقية العالمية التي لمْ تكن أنشطتها تقتصر على الجوانب العلمية فحسب، بل امتدَّتْ لتشمل الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، حيث رسمت الكثير من الخطوات على طريق الأحداث والتغيّرات السياسية وملحقاتها في العالم.وأهمّ المجالات التي انصبّ الاستشراق الفرنسي في دراساته والاهتمام به هو القرآن الكريم، حيث تدفّقت جهود المستشرقين الفرنسيين منذ فترة مبكرة في دراسة القرآن من كلّ الوجوه، وتواصلت هذه الجهود إلى يومنا هذا، مما حقَّق لها تدفّقًا هائلا من الأبحاث والدراسات الاستشراقية ملأت الساحة الفكرية والأكاديمية.

ففي مجال الترجمة . مثلا . تعددت وتنوّعت، كان من أشهرها:

1 . ترجمة دوريه (E. Duryer) التي ظهرت في باريس عام (1647م)، وكان واضعها قنصلا لفرنسا بأرض الكنانة، وكان أديبًا في اللغتين العربية والتركية.

2 . ترجمة سافاري (E. Savary) التي طبعت في باريس عام (1783م).

3 . ترجمة كازيميرسكي (Kazimirski) صدرت في باريس عام (1832م).

4 . ترجمة مونتيه (E. Montet)، طبعت في باريس عام (1929م).

5 . ترجمة بلاشير (R. Blachere) طبعت في باريس عام (1947م)؛ وكان صاحبها مستشرقا مرموقا، وأستاذا للفلسفة العربية في جامعة السوربون.

6 . ترجمة ماسون (D. Masson) التي صدرت في بيروت عام (1975م)، وهي مستشرقة مرموقة (17).

وما مَيَّزَ هذه الترجمات وغيرها أنّ البعض منها كانت ترجمات كلية، وبعضها ترجمات جزئية؛ ومنها ما كانت مفيدة وعلمية، وأغلبها كانت تحمل أهدافا عدائية عنصرية.ومثلما اهتمّ الاستشراق الفرنسي بترجمة معاني القرآن الكريم، اهتمّ أيضا بكلّ العلوم المتعلِّقة بكتاب الله تعالى، وذلك بتحقيق ونشر بعض الكتب في علوم القرآن والتفسير وغيرها، منها: (تاريخ القرآن) للمستشرق الفرنسي بلاشير، وكتاب بالعنوان نفسه للمستشرق الفرنسي بوتيه، وغيرها.

وفي العصر الحديث ألَّف المستشرق الفرنسي جاك جومييه كتابه: (الاتجاه الحديث لتفسير القرآن بمصر) (18).وأغلب هذه الدراسات والبحوث والإسهامات لم تكن مقاصدها معرفية، بل تَنْصِيرِيَّة، انطلقت لخدمة مصالح ومقاصد ذاتية، تمثّلت في تشكيك المسلمين واستثمار الترجمات خاصة لشنّ مزيد من الغارات والهجمات ضدّ الإسلام وتعاليمه وثقافته، وذلك بإثبات بَشَرِيَّةِ القرآن

الكريم، وَتَشْوِيهِهِ بشتّى الطرق.وقد ترتَّب على تلك المقاصد والأهداف تعدد الاتجاهات والمنهج داخل المدرسة الاستشراقية الفرنسية، وهو ما سوف يتّضح في المطلب الآتي.

المطلب الأول: اتجاهات المستشرقين الفرنسيين في دراسة القرآن الكريم

انعكست أهداف ودوافع الاستشراق العامّ على الاتجاهات والمناهج المعتمدة في دراسة الفكر الإسلامي عموما، ودراسة القرآن الكريم خصوصا من طرف المستشرقين، مما أدّى في غالب الأحيان إلى انحراف عن المنهج العلمي السليم، وإلى تصنيف المستشرقين على حسب توجّهم وأهدافهم، او باعتبار المدرسة الاستشراقية جُزْءًا من هذا الاستشراق العامّ، فإنّ المستشرقين الفرنسيين في تناولهم ودراستهم للقرآن وعلومه انقسموا إلى اتجاهين هما:

الاتِّجاه الأوّل: اتّجاه تلفيقيّ تحامليّ، سلكَ كلّ الطرق والمسالك لتصوير الإسلام وإظهاره في صورة مشوّهة، لإثبات بشرية القرآن الكريم والتشكيك في مصدره، فحاولوا التشكيك في مَوْثُوقِيَّتِهِ، وفي كلّ جانب من جوانبه اللغوية والأدبية والتشريعية.كما حاولوا ترجمة معانيه ليس بهدف الاِطِّلَاعِ عليه، أو الاستفادة منه، أو إفادة قومهم به، وإنما بهدف خدمة مصالحهم وتحقيق مقاصدهم التنصيرية؛ فلا غرابة أن يبدلوا جهودا مضاعفة لإثبات مزاعمهم وادّعاءاتهم، فأتوا بتعليلات وتأويلات كلّها تنساق في التشكيك في صحَّة القرآن والعلم، فإنّ معظم هذه الترجمات التي أعدّها المستشرقون الفرنسيون فيها أخطاء وتحريفات وتجاوزات، بسبب أنّهم لمْ يحاولوا فَهْمَ القرآن الكريم قبل كلّ شيء من نصّه؛ فضلا عن انطلاقتهم في دراستهم له مِنْ هدفٍ أساسيٍّ سَعَوْا إلى تحقيقه، وهو التشكيك فيه، ونَفْيِ صفة الإعجاز التي يَتَّصِفُ بها ويرتكز عليها (19).

وعليه، فإنّ هذا الاتجاه تَمَيَّزَ داخل المدرسة الفرنسية خاصة، والفكر الاستشراقي عامَّة، بأنّ أفراده يعتبرون من الأوائل الذين حاولوا بَثَّ الروع بأنّ القرآن الكريم من وضع محمد .^ ،. وأنّه كتاب متناقض، وليس بكتاب يوحى به من الله تعالى.

الاتجاه الثاني: وهو الاتِّجاه الأقرب إلى الموضوعية والعلمية، وينقسم إلى فِئَتَيْنِ:

الفِئَةُ الأولى، وهي التي أنصفت نفسها أَوَّلًا قبل أن تنصف الحقيقة، فَلَمْ يكلِّفْ هؤلاء المستشرقون أنفسهم سوى أن يكونوا موضوعيين في تفكيرهم ودراستهم للقرآن الكريم بكلّ موضوعية، مما قادهم هذا التفكير إلى اعتناق الإسلام، أمثال: المستشرق والطبيب الفرنسي (موريس بوكاي)،

الذي تحوَّلَ إلى مدافع عن الإسلام، وخادما للقرآن الكريم، بإثبات مصدرية الوحي لكتاب الله تعالى أمام الغرب.

الفئة الثانية، وهي التي حاولت أن تكون موضوعية في دراسة القرآن وترجمته، كما أنها انتقدت بعض افتراءات ومواقف الاتجاه الأوّل، لارتباطه بالدوائر الاستعمارية والصليبية؛ ومن أبرز أفراد هذه الفئة المستشرق الفرنسي المعاصر (جاك بيرك)، الذي اهتمّ بالدراسات القرآنية، وأنجز ترجمة لمعاني القرآن الكريم، محاولة معاصرة منه، لَقِيَتْ صدًى واسعًا، وتغطية إعلامية هائلة جعلتها تتربّع كرسي الصدارة في الاستشراق الفرنسي المعاصر، فقد صدرت ترجمة بيرك لمعاني القرآن الكريم سنة (1990م)، واشتهرت لأسباب وعوامل عديدة، منها:

1 . اعتكافه الطويل في إنجاز هذه الترجمة، دامت أكثر من عشر سنوات، ومراجعة هذا الإنجاز وتدقيقه أكثر من ثلاث سنوات، واستئناسه بمعظم التفاسير القرآنية المشهورة، مما جعل هذه الدراسة أفضل وأقرب إلى الصواب من غيرها.

2 . إجادته اللغة العربية وقواعدها، مع بعض النواقص؛ فمقارنة بمستويات المستشرقين الآخرين، يعتبر (جَاكْ بِيرْكْ) أفضلهم إتقانا للّغة العربية وقواعدها، لذلك يُعَدُّ من أبرز المستعربين المعاصربين، الذين رفضوا أن ينسبوا إلى (**الاستشراق**)، فأطلقوا على أنفسهم مصطلحا حديثا هو (**المُسْتَعْرِب**).

3 . تَمَيُّزُهُ عن غيره من المستشرقين الذين عُرِفُوا بِتَهَجُّمِهِمْ المباشر على الإسلام وتشويه الحقائق فقد عُرِفَ (جَاكْ بِيرْكْ) باعتداله وموضوعيَّتِه، على الرغم من أنّ حقيقة الأمر تدلّ على أنّ مواقف الرجل من الإسلام لا تخلو من انتقاد لبعض القضايا والمبادئ والأسس الإسلامية؛ ومع ذلك، فقد لُقِّبَ عند البعض من المسلمين المهتمّين بالدراسات الاستشراقية بـ(**المستشرق الخَبِير**) في الفكر الاستشراقي الجديد، مقابلةً له في الفكر الاستشراقي القديم المسمى بـ(**المستشرق المُبَشِّر**) (20)، إذ تحوَّلَ من (**الاستشراق القديم**) إلى (**استشراقٍ جديدٍ**)، يقوم على دراسات علمية دقيقة، بهدف تقديم الدلالات التي تخدم المخابرات الغربية، تحت غطاء مراكز بحثية.

ومهما قيل حول الرجل من انتقادات، فإنّه اعترف بأنّ محاولته لترجمة معاني القرآن الكريم ليست محاولة لتفسيره، إذْ الترجمة الحقيقية لنصّ القرآني مستحيلة، فألفاظ وعبارات القرآن الكريم لها مَدْلُولَات ومؤشّرات عميقة، ولا تستطيع اللغة (القابلة) أن تنقلها بكلّ ما تحتويه من معانٍ ظاهرة وخافية (21).

المطلب الثاني: منهج الاستشراق الفرنسي في دراسة القرآن الكريم

لا يمكن معرفة مناهج الاستشراق الفرنسي في دراسته للقرآن الكريم وترجمته، إلَّا إذا حددنا أهداف هذه المدرسة، لأنّ المنهجَ يُوَظَّفُ انطلاقا من هذه الأهداف.

وعليه فأغلب أهداف الاستشراق العامّ، والاستشراق الفرنسي على الخصوص، هي أهداف سياسية، استعمارية، تنصيرية؛ وقد تَمَّ الإشارة إلى ذلك من قَبْلُ؛ ومع ذلك فإنّنا لا ننكر وجود استشراق علميٍّ، على الرغم من أنّ مساحته ضيّقة مقارنة بالأوّل.

ونَرَى أنّ الهدفَ الرئيسي والمركزي من الاستشراق عموما، والفرنسي خصوصا، هو الدافع الديني الذي يسعى إلى التشكيك في الإسلام وكلّ ما أنتجه المسلمون من تراث وحضارة، فلم يكن الهدف بطبيعة الحال هو عرض صورة موضوعية عن القرآن وترجمته وتفسيره، إنما هو العكس من ذلك.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الاستشراق الفرنسي . من أجل تحقيق تلك الأهداف . سَلَكَ عِدَّة مناهج غير علمية؛ يمكن استعراض بعضها في العناصر الآتية:

1 . (المنهج التشكيكي): اتّصف منهج الاستشراق الفرنسي بالتشكيك المستمرّ في مصداقية القرآن الكريم، وذلك بالمبالغة في إثارة الشكوك حول الوقائع التاريخية والروايات الصحيحة المرتبطة بتاريخ القرآن الكريم وعلومه؛ واعتمدوا في ذلك على عملية الانتقاء بطريقة مغرضة وهادفة إلى ما يَصْبُونَ إلى تحقيقه من نتائج عكسية (22)، انطلاقا من نوايا مسبقة، يمكن إجمالها في النقاط الآتي:

أ) . عدم الثقة في صحّة النصّ القرآني

ب) . سوء الفهم للنصّ القرآني، وضعف استيعاب اللغة العربية وقواعدها.

ج) . عدم الالتفات إلى آراء علماء الإسلام وأقوالهم.

د) . البحث عن مواضع الاختلاف أكثر من مواضع الاتّفاق في جمع الروايات والتفسيرات.

ولتحقيق ذلك، سَعَتْ المدرسة الاستشراقية الفرنسية في دراستها للقرآن الكريم وعلومه إلى منهج الانتقاء في استعمال المصادر، وذلك من خلال اعتماد عدد معيّن ومحدود من مصنّفات علوم القرآن وتفسيره دون غيرها، وذلك:

. بانتقاء الروايات الضعيفة والمنقطعة عن مصادر علوم القرآن الكريم.

. إهمال المصادر القرآنية الأصلية والاكتفاء والاحتفاء بدراسات المستشرقين السالفة (23).

2 . **(المنهج الإسقاطي):** وهو إسقاط الواقع المعيش على الحوادث والوقائع التاريخية، وهذا المنهج غير علميّ، إذْ يكشف عن عقليّة الباحث أكثر مما يكشف عن موضوع البحث، فهذا المنهج ينطلق من نتيجة سلبية تخدم مصالح الباحث لِتُبْنَى عليها النتيجة . مقدمات؛وهذا المنهج تَمَّ توظيفه من طرف الاستشراق الفرنسي في أبحاثه القرآنية.

ومن أمثلة المنهج الإسقاطي: ما أورده المستشرق (بَلَاشِيرْ) في سياق البحث عن أسباب عدم جمع القرآن الكريم في مصحف واحد في عهد النبيّ .^ ، إذ يُرْجِعُ السببَ في أنّ النبيَّ .^ . وأصحابه كانوا يميلون إلى ترك الأمور على ما هي عليه، لأنّ العربَ في جملتهم لا يفكّرون إلَّا في الحاضر، ولا يهمّهم المستقبل، وهذا المَيْل يَقِف وراء عزوف المسلمين عن جمع القرآن في عهده . عليه الصلاة والسلام . (24).والحقيقة أنّ التفسير الإسقاطي لا يستند إلى دليلٍ علميّ أو منطقٍ سليمٍ صحيحٍ، وإنما هو منهج يخضع لهوى المُسْتَشْرِق وأحكامه المسبقة، ممَّا نَتَجَ عنه أحكام تعسّفيّة وجَائِرَة.

3 . **(منهج التأثّر والتأثير):** وهو . في عُرْفِهِمْ : الأخذ بالنزعة التأثيرية التي تُفْرِغُ الحضارة المدروسة من إبداعها الذاتيّ، وإسناد ذلك إلى مصادر خارجية؛ وهو منهج متطرّف عدواني، غير علميّ، خالي من نزاهة الفكر، يغلب عليه الانحراف العلميّ. وهذا المنهج نجده حاضرًا بقوَّة في الدراسات القرآنية للاستشراق الفرنسي، فأغلب كتاباتهم أخذت بأحكام تعسّفية، وتزعم بأنّ القصص القرآني مأخوذة عن القصص اليهودية والنصرانية، وهو قرره . مَثَلًا . المستشرق الفرنسي (بلاشير)، بقوله: « إنّ التأثير النصرانيّ كان واضحا في السُّوَرِ المكِّيَّة الأولى ».

وفي هذا السياق نفسه يذهب المستشرق الفرنسي اليهودي الديانة (أندري شوراكي) إلى أنّ كثيرا من الأعلام الواردة في القرآن ذات أصْلٍ عِبْرَانِيٍّ، وذلك عندما قامَ بترجمة معاني القرآن؛ وقد انْتَقَدَهُ المستشرقون أنفسهم قبل غيرهم من المسلمين (25).

ونخلص في الأخير . مما سبق بيانه في هذا البحث . إلى أنّ منهج الاستشراق الفرنسي في دراسته للقرآن الكريم وعلومه منهجٌ متطرّفٌ عُدْوَانِيٌّ، خَالٍ من نزاهة الفكر، يغلب عليه الانحراف العلميّ، فكثير من الأبحاث والدراسات القرآنية التي جاء بها الاستشراق مَبْنِيَّةٌ على افتراضات لا أساس لها، ولا سند علميّ لها، معبّرة عن غاية خبثهم وعمق دوافعهم المعادية للإسلام وللأُمَّة العربية والإسلامية، فكشفت عن أصولهم الفكرية ومُنْطَلَقَاتِهِم الإيديولوجية، وخلفياتهم اللَّاهوتية التي تصدر عنها تلك

الآراء المتهافتة، والتي تهدف للنيل من الوحي الربَّاني، والطعن في صِدْقِيَّتِهِ، والتقليل من قيمته، والتهوين من شأنه عند المسلمين.

الخاتمة: نتائج وتوصيات

تنوعت الاهتمامات الاستشراقية بالدراسات الاسلامية عامة و الدراسات القرآنية خاصة ؛واتخذت مسارات متعددة قديما و حديثا , و تعد المدرسة الاستشراقية الفرنسية من أهم المدارس وأقدمها اهتماما بهذا المجال .

ومن خلال هذه المداخلة توصل البحث الى النتائج الآتية :

1. إن الفكر الإستشراقي تشكل في أنساق كثيرة و إتجاهات متعددة تنطلق من تصورات و رؤى خاطئة ناتجة عن سوء فهم أحيانا و سوء نية أحيانا أخرى .
2. لقد كان للمدرسة الإستشراقية الفرنسية الأثر الكبير على الفكر الإستشراقي العام خاصة في مجال الدراسة القرآنية إذ تبرز بشكل واضح في مجال الترجمة حيث كان لها السبق في ذلك كما تدفقت جهود هذه المدرسة في دراسة القرآن منذ فترة مبكرة في تاريخ الإستشراق و استمرت تلك الجهود الى عصرنا الحاضر .
3. لم تتسم أبحاث المستشرقين في مجال الدراسات القرآنية بالعمق العلمي بل غلب عليها السطحية و الجهل بأصول البحث العلمي و ظهر فيها أثر خلفياتهم العدائية للإسلام مما يؤكد أن المقصد من الدراسات القرآنية لم يكن مقصدا معرفيا بل تبشيريا .
4. تبين أن مناهج و آليات البحث عند المستشرقين الفرنسيين في دراسة القرآن الكريم و ترجمته قد انحرفت عن المنهج العلمي مما يؤكد أن أغلبهم غير مؤهلين في الحديث و البحث في المجال القرآني لافتقارهم الى كل خصائص الأمانة العلمية بسبب بغضهم التاريخي الصليبي للإسلام فغالبية تلك الدراسات يغلب عليها طابع الانحراف العلمي اذ كشفت دراساتهم عن أصولهم الفكرية و ممنطلقاتهم الايديولوجية و خلفياتهم اللاهوتية .
5. إن غياب المنهج العلمي في الدراسات القرآنية و استبداله بالمنهج الإسقاطي و التشكيكي و الإنطلاق من نتيجة سلبية لتبنى عليها مقدمات ولّد ذلك منهجا تصادمي مع الآخر من حيث دراسة تفاعلاته المتنوعة لا من باب التشبع بنظرية عامة حول خصائص و مميزات ثقافة الآخر بقدر ماهي أساليب مستعملة في البحث عن نقاط ضعفه.

6. إن بعض المستشرقين الفرنسيين الذين حاولوا أن يكونوا على درجة من الحيادية و التزام الموضوعية في أبحاثهم القرآنية لم يفلحوا في ذلك لأن دراسة هؤلاء في مجال القرآنيات ليس كغيرها لا لشيء الاّ لكونها تنصب على موضوع يرتبط بمسألة الوحي الذي لا يؤمن به الباحث الفرنسي و لا يمكن أن يتعاطف معه مبدئيا و بالتالي لا بدّ أن تؤثر عليه قناعاته الدينية و خلفياته الفكرية في مجال البحث.

التوصيات :

1. ضرورة تحليل الخطاب الاستشراقي و موقفه من القرآن الكريم و ذلك بإنشاء مؤسسة علمية تجمع نخبة المفكرين العرب المسلمين لتهتم بإعادة قراءة الفكر الاستشراقي و تأصيله.

2. ضرورة الاهتمام بدراسة آراء المدرسة الفرنسية حول القرآن الكريم دراسة علمية نقدية تتسم بقدر كبير من الجدة و الموضوعية وذلك لسد فراغ ملحوظ في هذا المجال وكل ذلك يحتاج الى وضع خريطة جديدة في دراسة الفكر الاستشراقي عامة و بانتاجه في مجال الدراسات القرآنية خاصة.

هوامش البحث ومصادره ومراجعه:

(1) ابن منظور: لسان العرب، (173/10)؛ الفيروزآبادي: القاموس المحيط، (248/3).

(2) المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، القاهرة، (1960م)، (482/1).

(3) يحيى مراد: معجم أسماء المستشرقين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (1425 هـ/2004م)، (ص/5).

(4) محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، كتاب الأمّة، قطر، طبعة (1404 هـ)، (ص/41).

(5) محمد عبد الغني، حسن عبد الله الفكري: أعلام العرب، (ص/89).

(6) مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد، بيروت، الطبعة الأولى، (ص/5).

(7) حسن حنفي: هموم الفكر والوطن، دار قباء، القاهرة، الطبعة الثانية، (1998م)، (ص/545).

(8) إدوارد سعيد: الاستشراق: المعرفة . السلطة، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، طبعة (1984م)، (ص/39).

(9) المرجع نفسه، (ص/56).

(10) المرجع نفسه، (ص/68).

(11) يحيى مراد: معجم أسماء المستشرقين، (ص/6).

(12) المرجع نفسه، (ص/6).

(13) المرجع نفسه، (ص/7).

(14) المرجع نفسه، (ص/8).

(15) أنور الجندي: تيارات مسمومة ونظريات هدَّامة معاصرة، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، (ص/309).

(16) المرجع نفسه، (ص/36).

(17) علي الصادق حسنين: (مقال) بحوث الندوة العالمية حول ترجمات معاني القرآن الكريم، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الطبعة الأولى، (1986م)، (ص/171 . 172).

(18) انظر: عبد الرّزّاق هرماس: تفسير القرآن الكريم في كتاب المستشرقين، مجلة البحوث الإسلامية، إدارة البحوث العلمية والإفتاء . الرياض، العدد: (67)، (ص/111 . 112).

(19) انظر: إبراهيم عوض: المستشرقون والقرآن، دراسة لترجمات نفر من المستشرقين الفرنسيين للقرآن الكريم وآرائهم فيه، مكتبة زهراء الشرق . القاهرة، الطبعة الأولى، (1423 هـ/2003م).

(20) مصطفى عبد الغني: الاستشراق المعاصر: جاك بيرك نموذجا.

(21) مصطفى عبد الغني: ترجمة جال كبيرك للقرآن: من القرآن إلى التفسير، مجلة الاجتهاد، العدد (49)، تشاد، (1422هـ/2001م)، (ص/115 . 137).

(22) انظر حسن عزوزي: آليات المنهج الاستشراقي في الدراسات الإسلامية، مطبعة آنفو . فاس، المملكة المغربية، طبعة (2007م)، (ص/15).

(23) المرجع نفسه، (ص/19 . 25).

(24) المرجع نفسه، (ص/38).

(25) المرجع نفسه، (ص/28).